

الجذور والتاريخية
للسريعة الإسلامية

خليل عبد الكريم



الأهميّات

إلى زوجتي الحبيبة التي منذ نيف وثلاثين عاماً تشتكى لـ (طوب الأرض) إنصرافي للقراءة والإطلاع والبحث وتؤكد أن لو كان معها ثلاثة [ضراتر] لكان أهون عليها ومع ذلك ظلت مثلاً فريداً للزوجة المخلصة الودود فجزاها الله عنى خير الجزاء.

خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

دأب كثير من [الدعاة] على نعت الفترة السابقة على البعثة المحمدية بنعوت بشعة ووصف عرب المغيرة في ذلك الوقت بأوصاف كريهة حتى ترسخ في الأذهان أن تلك الحقبة لم تكن سوى مجموعة من الظلاميات والجهالات والأضاليل وأن أهلها ليسوا إلا حفنة من المتباهرين المنحليين، عديمي الفكر فاقدى الثقاقة فاسدى الخلق، وهم [= الدعاة] يتوهون بأن ذلك يخدم الإسلام؛ خاصة وأن القرآن الكريم قد وصف تلك الفترة بـ[المجاهلية] - والأمر على النقيض إذ أنهم بذلك يسيئون للإسلام، فمن السخف لو كان الأمر كذلك أن يخاطب القرآن قوماً ويجادلهم وهم على تلك الحال وأنت تخرج من قراءة آيات الحوار أنهم كانوا على قدر وفيه من قوة العارضة وتمكن من المحاورة، وفيما كان المخاصم والخلاف؟

في [هذه المسائل المفضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقاً إلى حلها] : في البعث، في الخلق، في إمكان الإتصال بين الله والناس في المعجزة وما إلى ذلك^(١) ويتسائل العميد قائلًا [أفتشن قوماً يجادلون في هذه الأشياء جدالاً يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباء والغلظة والخشونة؟]^(٢) ثم يجيب

- ١- د. طه حسين «في الشعر المجاهلي» ص. ٢٠ - مطبعة دار الكتاب المصرية القاهرة -
الطبعة الأولى ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م.
- ٢- المرجع السابق ذات الصفحة.

[كلا لم يكونوا جهالاً ولا أغيباء ولاغلاظاً ولا أصحاب حياة خشنة جافية وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمته] ^(٣)

هذه واحدة

والثانية أن القرآن الكريم قد تحدى أولئك العرب قائلاً :
[قل فأتوا بسورة مثله]^(٤)، [قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات]^(٥)، والتحدي لا يكون للضعف المفلوك [تحديث فلانا إذا هاربته في فعل ونazuعته الغلبة]^(٦) ولا يكون ذلك إلا من الأقران الأكفاء فلا يتصور أن تتحدى الولايات المتحدة الأمريكية دولة من العالم الثالث ولكنها قد تتحدى الإتحاد السوفيياتي أو الصين الشعبية في القوة العسكرية واليابان في التجارة والاقتصاد ولا يعقل أن يتحدى بطل العالم في رياضة ما لاعباً معموراً إنه إذا فعل سيكون موضع سخرية الجميع.

إن تحدى القرآن له دلالة قاطعة على أنهم كانوا على قدر ملحوظ من التقدم في الناحية التي تحداهم فيها وهي الناحية البلاغية والمعرفية والثقافية وهي تمثل جانباً هاماً من الموازين التي توزن بها أقدار الشعوب. أما الثالثة والأخيرة فهي أن الإسلام ورث الكثير من عرب الجزيرة واستعار العديد من الأنظمة التي كانت سائدة بينهم في شتى المجالات :

٣- المرجع السابق ذات الصفحة.

٤- سورة يونس الآية ٣٨ / .

٥- سورة هود الآية ١٣ / .

٦- المختار من صالح اللغة.

الأخلاقية والإقتصادية والاجتماعية والقانونية [= المحققة] والسياسية واللسانية، إننى أعرف أن علماً الإجتماع يرون أن [التنظيم الاجتماعي] أو [الحياة الاجتماعية] تجمع ذلك كله، وأنه يكفى أن يقال [الإجتماعية] ولكننى قصدت التمييز بينها ليدرك القارئ المدى الواسع لل بصمات العربية فى الإسلام بل إن هناك مجالاً يحرص [الدعاة] على إغفاله أو التعتمد عليه حينما يضطرون أن يذكروا - فى عجلة- ما ورثه الإسلام من التبادل العربية التى كانت موجودة إبان ظهوره فى الثلث الأول من القرن السابع الميلادى - وهذا المجال هو [الدينى] أو [التعبدى] فالكثير من القراء قد يدهش عندما يعرف أن الإسلام قد أخذ من [المجاهلية] كثيراً من الشئون الدينية أو التعبدية :

أخذ منها فريضة الحج وشعيرة العمرة وتعظيم الكعبة وتقديس شهر رمضان وحرمة الأشهر الحرام وثلاثة حدود : الزنا والسرقة وشرب الخمر وشطرأً كبيراً من المسئولية الجزائية مثل القصاص والدية والقسمة والعاقلة... الخ.

وفي باقى المجالات : أخذ بعضها وترك البعض الآخر وفي أحياناً كان يعدل فيها إما بالزيادة أو النقص وفي أحياناً أخرى كان يستعير [النظام] بأكمله دون تحويل فقط يغير إسمه.

الموضوع الذى نبحثه هنا هو محاولة الكشف عن الموروث أو الميراث العربى الذى ورثه الإسلام عن عرب الجزيرة وذلك بقصد فهم الإسلام فيما صحيحاً- والحق أنها محاولة رائدة ولاشك أنها ستتحمل فى طياتها ماتنوء

به دائماً الأعمال الرائدة من قصور ذلك أن الموضوع يحتاج إلى كتبة من الباحثين تختص كل سرية منها بفرع خاص حتى تكتمل الصورة ويستوفى الموضوع حقه من التمييز ومن العرض الشامل الكامل.

وفي رأينا المتواضع أنه أمر على درجة بالغة الخطورة من الأهمية لأن مثل تلك الدراسة سوف تكون المفتاح المنهجي للفهم الصحيح للإسلام وخاصة للمواضيع المثارة الآن في الساحة الإسلامية مثل : الشورى والخلافة والمحجوب والنقاب والنظرة إلى المرأة وعملها [طبعاً خارج المنزل] والأحزاب والمعارضة ونظم الحكم... الخ.

فما لا جدال فيه أن حياة القبائل العربية قبيل الإسلام خاصة في وسط الجزيرة هذه الحياة في كافة قسماتها التي سردنا شطرًا منها كانت هي [البروفة] أو [المسودة] أو [التجربة] لأنظمة الإسلامية.

ومن نافلة القول أن نضيف أنه عندما يستشكل على المرء قراءة عبارة في [المتن] أو [المبيضة] فإنه يرجع إلى [البروفة] أو [المسودة] أو [التجربة] ليفقه معناها أو يصل إلى مرماها.

ومن هنا تتبع أهمية الدعوة التي نطلقها بضرورة دراسة المجتمع العربي قبيل الإسلام دراسة علمية مسأنية ومستقصية لشئ من مباحثه.

وَضْلَةٌ

العرب مادة الإسلام مقوله منسوبة إلى الفاروق عمر (رضي الله عنه)؛
ومادة الشئ أصله ومعدنه وقوامه، والإسلام يدين للعرب بالكثير :
بالنبي العربي محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي بلغ رسالته
والصحابه (رضي الله عنهم) الذين آذروه وضعوا بأموالهم ودمائهم في
سبيله، وبالكعبة التي يتوجه إليها المسلمون في كل صلاة فريضة ونافلة
وتتضمنها مكة المكرمة وهي مدينة عربية عريقة، وبأبناء القبائل العربية الذين
حملوا على كواهلهم أعباء الفتوحات التي كانت السبب المباشر في نشر
الإسلام من إسبانيا غرباً حتى الصين شرقاً، وبلغة العرب التي وسعت كتابه
 [= الإسلام] وهو القرآن الكريم، وأظهرت إعجازه ومن ثم ساهمت في
 خلوده.

وقد فسر العميد د / طه حسين مقوله عمر [العرب مادة الإسلام] بأنهم
 كانوا [مصدر قوته العسكرية]^(٧) وهو تفسير إقتصر على جانب يسير وترك
 باقي الجوانب بل أخطرها ألا وهو أن العرب هم مصدر الكثير من الأحكام
 والقواعد والأنظمة والأعراف والتقاليد التي جاء بها الإسلام أو شرعها حتى

- ٧ - د / طه حسين - الفتنة الكبرى - الجزء الأول - عثمان - ص ٩٠ - الطبعة العاشرة
 ١٩٨٤ دار المعارف مصر.

يمكنا أن نؤكد ونحن على ثقة شديدة بأن الإسلام ورث من العرب الشع
الوفير بل البالغ الوفرة في كافة المناحي :
التعبدية والإجتماعية والاقتصادية والسياسية والحقوقية... الخ
والإهاطة بهذا الميراث أمر تنوء به العصبة أو لو القوة من الباحثين
والدارسين وسنحاول أن نورد فيما يلى طرفاً يسيراً أو شطراً ضئيلاً منه بقدر
الطاقة ونأمل أن يكون مرشداً أو مفتاحاً لأبحاث أو دراسات تحيط بأطرافه
وتلم شتاته.

الباب الأول
الشحائر التعبديّة

الفصل الأول

الشحائر التحبيبة الموروثة من القبائل العربية

ونبدأ بـ [الناحية التعبدية] أو [الشعائر التعبدية] :-

(١) تعظيم البيت الحرام [الكعبة] والبلد الحرام :

على الرغم من وجود إحدى وعشرين كعبة - قبل الإسلام - في جزيرة العرب فإن القبائل العربية قاطبة أجمعـت على تقديس [كعبة مكة] وحرست أشد الحرص على الحج إليها، يستوى في ذلك من القبائل من كانت لديه كعبة خاصة مثل غطفان أم لا :

[فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله .. رجال بنوه من قريش وجدهم] (٨)

بل إن الأخبار وردت أن عدداً من القبائل انتشرت بين أبنائها اليهودية والنصرانية ومع ذلك كانت تشارك في موسم الحج، ومن شدة تقديسهم للكعبة أن الرجل منهم كان يرى قاتل أبيه في البيت الحرام فلا يمسه بسوء وقال ابن الكلبي في كتابه [الأصنام] كان العرب يعظمون الكعبة ومكة ويسيرون على إرث أبيهم إسماعيل من تعظيم الكعبة والحج والإعتمار.

وكان العرب يجعلون أهل مكة [قريشا] ويكبرونهم ويسمونهم [أهل الحرم] وكان الإصهار إليهم يعتبر شرفاً لا يتطاول إليه إلا بعض شيوخ القبائل وأهل الرفعة فيهم -

-٨- زهير بن أبي سلمى في معلقته - توفي سنة ٤٥ ق.هـ (قبل الهجرة).